# صفحات ونفحات

## من الحياة الروحية المحمدية

بقلم

الدكتور محمد مصطفى حلمى

أستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

**حديثنا** فى المقال السابق عن بعض العناصر العملية التى كان يتألف منها القانون الخلقى للحياة الروحية المحمدية ، وهو ذلك القانون الذى يعد بحق مصدرا اسلاميا خالصا لكل ما جاء بعده من قوانين خلقية تعاقب على وضعها كل من صحب النبى عليه الصلاة والسلام من الصحابة وكل من أعقبهم من طبقات التابعين وأتباع التابعين ، وغير أولئك وهؤلاء ممن كان لهم شدة عناية بأمر الدين سواء من كان من الزهاد والعباد والنساك ، ومن كان من الصوفية الخلص ، أو الصوفية المفلسفين ، أو الصوفية الذين ينزعون فى تصوفهم منازع فلسفية ، أو الصوفية الذين نقرأ آثارهم المنظومة والمنثورة فنجدها منطوية على بعض المعانى الفلسفية ، وليس من شك فى أن اصطباغ بعض الآثار الصوفية بهذه الصبغة الفلسفية لم يفقدها طابعها الاسلامى الذى يرد أول ما ينبغى أن يرد الى مصدره فى الحياة الروحية المحمدية بما أخذ فيها صاحبها عليه الصلاة والسلام نفسه من تحنث قبل البعثة ، ومن تخلق بأسمى الأخلاق بعدها ، وبما يستتبعه هذا التخلق وذلك التحنث من صفاء القلب وجلاء البصيرة ، وما الى هذا الجلاء وذلك الصفاء من الخصائص النفسية الروحية التى اختص بها نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام ، والتى أحب أن أقف عندها فى هذا المقال .

وكما كانت الحياة الروحية المحمدية فى صورتها الخلقية العملية فياضة بضروب عدة من الرياضات والمجاهدات مشتملة على أسمى المبادىء وأدق القواعد التى ينبغى أن يقوم عليها السلوك الانسانى فى الحياة العامة والخاصة للأفراد والجماعات ، والتى أقام عليها الزهاد والعباد والصوفية طرقهم فى رياضة النفس ، ومجاهدة الحس ، ومعاندة الشيطان ، ومقاومة الاثم والعدوان ، فهى قد انطوت فى صورتها النفسية على أصفى الأحوال اختص بها نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام ، والتى أحب أن أقف عندها هذا كله من المواجيد وما يحصل فيها من مكاشفات ومشاهدات ، ومن

تحقق بأدق المعارف ، وتذوق لأرق اللطائف ، حتى أن الصفحات التى أفاض فيها الصوفية فى وصف أحوالهم ومقاماتهم ليست فى حقيقتها الا صورا مكبرة لتلك الصفحة الأولى من صفحات الحياة الروحية المحمدية كما أن النفحات التى وردت على قلوب الصوفية فتمثلت أسرارا ، وتجلت أنوارا ، وصارت للعارفين الذائقين منارا ، لم يكن هذا كله الا نفحة من تلك النفحة التى تأرج عبيرها ، وانبثق نورها ، من قلب محمد عليه الصلاة والسلام لأول مرة فى تاريخ الحياة الروحية للاسلام .

ولكى ينبثق هذا كله فى وضوح وجلاء ، يحسن أن نقف عند بعض العناصر النفسية فى الحياة الروحية المحمدية وما عسى أن تدل عليه هذه العناصر من المعانى الروحية التى أخذها الصوفية بعد ذلك ، فأساغوها وأقاموا علمهم عليها ، وتوسع بعضهم فيها حتى أخرجها عن أصولها ، فكان ما كان من اسراف وانحراف . ولو قد وقف المسرفون والمنحرفون عند حدود المعانى التى رسمها نبى الاسلام ، لما كان هناك اسراف أو انحراف ولما تعرض التصوف لما تعرض له من نعى الناعين ، وطعن الطاعنين .

وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام ما كان يأخذ به النبى صلى الله عليه وسلم نفسه من عزلة واعتكاف ، ومن تهجد وقيام فى الليل ، ومن استغفار وذكر ، وما كان يعرض لنفسه فى هذا كله من أحوال قوامها التأمل والتفكر فى بديع صنع الله ، والاستغراق فى ذكر الله ، والانقطاع حينا لله ، والانصراف حينا آخر عن كل شىء الا عن الله ، والاقبال بكنه الهمة على كل ما من شأنه تصفية النفس ، وتنقية القلب ، بحيث أصبح صاحب هذا القلب النقى وتلك النفس الصافية ، أهلا لأن يرى بعين ظاهره وباطنه ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . لقد كان هذا كله سبيل محمد عليه الصلاة والسلام الى ما خصه الله به من مقام ، وما أشهده عليه من حقيقة ، فهو حبيب الله وصفيه ، وهو خليله ونجيه ، وهو بحكم هذا الاختصاص قد انجاب عن عين قلبه الحجاب ، وانفتح له من دون الحقائق العلوية والدقائق الالهية كل باب ، وهذا يعنى بعبارة أخرى ان ما يتحدث عنه الصوفية من كشف حجاب الحس ، والمشاهدة بالقلب ، والاسراء بالروح فيما وراء عالم الشهادة من عوالم الغيب والملكوت والجبروت ، قد وجد كل أولئك بذوره الأولى فى روضة ذلك القلب المحمدى التى نبتت فيها أشرف الثمرات ، وسرت منها ألطف النفحات ، وذلك على الوجه الذى تظهرنا عليه آيات القرآن الكريمة من ناحية ، وأخبار السيرة النبوية الشريفة من ناحية أخرى .

ولعل أول ما يدل على ذلك الطابع الروحى الذى طبعت به الحياة المحمدية فى أسمى وأنقى صورها الروحية الصافية ، هو الاسراء والمعراج

اللذان ورد ذكرهما فى القرآن الكريم ، وأفاضت فى وصفهما كتب السيرة العطرة : فقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام ، كان ليلة الاسراء فى بيت أم هانىء وهى هند ابنة عمة أبى طالب ، وقد روت أم هانىء حديث الاسراء فقالت : « ما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم الا وهو فى بيتى ، نائم عندى ، فصلى العشاء الآخرة ، ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى الصبح وصلينا معه ، قال : « ياأم هانىء ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم قد صليت الغداة معكم الآن كما ترين » ... فقلت له : يانبى الله ، لا تحدث بهذا الحديث الناس فيكذبوك ، ويؤذوك ، قال : والله لأحدثنهموه ... » . وروى ابن اسحق حديث المعراج فقال : « حدثنى من لا أتهم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، انه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : » لما فرغت مما كان فى بيت المقدس ، أتى بالمعراج ، ولم أر شيئا قط أحسن منه ، وهو الذى يمد اليه ميتكم عينيه اذا حضر ، فأصعدنى صاحبى فيه حتى انتهى بى الى با ب من أبواب السماء يقال له باب الحفظة ، عليه ملك من الملائكة ... »

وليس من شك فى أن القرآن الكريم هو أصدق دليل على أن الاسراء والمعراج حقيقتان ثابتتان فى تاريخ الحياة الروحية المحمدية ، وأنهما قد انطويتا على معنى روحى له خطره فى النبوة المحمدية من ناحية ، وله أثره فى الحياة الروحية الاسلامية من ناحية أخرى . وحسبنا أن نتدبر قول الله عز وجل : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير** » ( سورة الاسراء ، أية «١» ) ، وأن نروى بصفة خاصة فى قوله تعالى : « **لنريه من آياتنا** » ، لنتبين ان الاسراء انما كان وسيلة من الوسائل الالهية التى اصطنعها الله عز وجل مع نبيه صلى الله عليه وسلم لكى يحقق له بها غاية عليا ، وهى أن يظهره على آيات ربه الكبرى التى تدل على وحدانية الله وقدرته وعظمته ، وعلى غير ذلك من الحقائق الغيبية العليا ، وذلك مما أشهده الله عليه ، وملأ قلبه به ، عند رؤيته السموات ومشاهدته ما فيها من الآيات .

على أن الاسراء والمعراج ، وان كانت حقيقتهما ثابتة يقينية ، الا أن آراء المفسرين والباحثين قد اختلفت حول الكيفية التى كان حصولهما بها : هل كانا بالروح ، أو بالجسد ، والذين يذهبون الى أن الاسراء كان بالجسد يستدلون بما شاهده النبى صلى الله عليه وسلم أثناء مسراه ، من الأشياء الحسية ، على حين يستدل أصحاب الرأى القائل بأن الاسراء والمعراج كانا بالروح ، بما روى عن عائشة رضى الله عنها من أنها قالت : «ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أسرى بروحه » أو أنها

قالت : « والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن عرج بروحه » . ومهما يكن من أمر هذا الخلاف ، فان الذى يعنينا هنا هو الرأى القائل بأن الاسراء والمعراج كانا جميعا بالروح لا بالجسد فهذا الرأى ان صح ، وصحت معه رواية عائشة التى يستند اليها أصحابه ، كان ذلك دليلا على مبلغ ما انتهى اليه محمد صلى الله وسلم من جلاء القلب، وصفاء الروح ، ونقاء السر ، ومن الكمال الروحى الذى هيأه به الله عز وجل لأن يصبح قادرا على التنقل بروحه فى ملكوت السموات والأرض ، والاحاطة بكل ما خلق الله من شىء ، والتحقق بمشاهدة الحقائق العليا مشاهدة عينية يقينية اتسع لها ذلك القلب المحمدى الكبير الذى زال عن عينه الغين ، وانكشف من دونه حجاب البين . وهذا الذى وقع لنبى الاسلام على هذا الوجه الروحى من شأنه أن يعيننا على فهم وتفسير ما

يتحدث عنه صوفية الاسلام من مشاهدات ومكاشفات وفتوحات ، وما يصفون من أحوالهم فى الترقى عن العالم السفلى الى العالم العلوى ، ومن فوز بالاتصال بالحقيقة العلية ، والقرب من الذات الالهية ، ومن انتهاء الى الفناء فناء ارادیا عن شهود ما سوى الله ، متخذين فى هذا كله من الروح والقلب والسر ما يجرى مجراها من الملكات الباطنية ، أدوات صادقة صالحة ، لأن توصلهم الى أسمى مراتب العرفان حيث تتطلع قلوبهم على أمتع الصفحات ، وتتعرض أرواحهم لأروع النفحات .

على أن فى الحياة الروحية المحمدية أحوالا نفسية وروحية أخرى يدل عليها غير الاسراء والمعراج مما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان آية من آيات كمال نبوته ، وجمال روحانيته . ويكفى أن أذكر من تلك الأحوال النفسية الروحية حالا من الأحوال التى ظهر فيها جبريل ، فاذا النبى يراه على أنه جبريل ، على حين رآه غير النبى على أنه شخص آخر يعرف باسم دحية : فقد روى فى السيرة النبوية الشريفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بنفر من أصحابه كانوا فى موضع يعرف بالصورين ، وذلك قبل أن يصل الى بنى قريظة فقال : « هل مر بكم أحد ؟ » قالوا : يارسول الله ، قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبى ، على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك جبريل بعث الى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم ... » . وقد أشار القرآن الكريم الى تلبث جبريل بصورة رجل ، وذلك فى قوله تعالى : « **وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون** » - ( سورة الأنعام ، آية ٨ - ٩ ) . ولعلنا لو أردنا أن نكشف عن المعانى التى تنطوى عليها هاتان الآيتان من ناحية والتى تدل عليها رواية ظهور جبريل فى صورة دحية ورؤية النبى له على حقيقته من حيث هو ملك من ناحية أخرى ، لما وجدنا تعبيرا أصدق ،

ولا تفسيرا أبين ، مما ضمنه الشاعر الصوفى العظيم عمر بن الفارض ، أبياته الرائعة من تائيته الكبرى التى يقول فيها :

وها دحيـة وافى الأمين نبينـا ... بصورته فى بدء وحى النبـوءة
أجبريل قل لى كان دحية اذ بدا ... لهـدى الهـدى فى هيئة بشرية
وفى علمـه عن حاضريه مزية ... بما هيـة المـرئى من غير مرية
يرى ملـكا يوحى اليـه وغيره ... يرى رجـلا يدعى لديه بصحبة
ولى من أتم الرؤيتين آشـارة ... تنزه عن رأى الحلول عقيـدتى
وفى الذكر ذكر اللبس ليس بمنكر ... ولم أعد عن حكمى كتاب وسـنة

فهاهنا رؤيتان : رؤية الذين رأوا جبريل على أنه دحية ، ورؤية النبى له على حقيقته الملكية ، وليس من شك فى أن أتم الرؤيتين وأصـدقهما وأدلهما على الحقيقة المرئية هى رؤية النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس من شك أيضا فى أن رؤية النبى على هذا الوجه ، لم تكن رؤية عادية من قبيل الرؤية الحسية التى تتاح لعامة الناس عن طريق حاسة البصر فتمكن لهم رؤية الشىء أو الشخص على ما يظهر لهم ويتجلى لحسـهم الظاهر ، وانما هى رؤية من نوع آخر ، وعن طريق قوة أخرى غير الحس الظاهر ، وهى قوة الروح الصافية النقية ، أو هى قوة ما يعرف عند الفلاسفة باسم النفس القدسية ، وهذه لا تتهيأ لكافة الناس ، ولكن الله يختص بها من يشاء ، وقد اختص بها نبيه وصفيه ، فكانت آية من آيات حياته الروحية ، وخاصة من خصائص نبوته المحمدية . ذلك بأن علمه عليه الصلاة والسلام لم يكن علما انسانيا ، ولكنه كان عرفانا لدنيا ، ورؤيته لم تكن رؤية لظواهر الأشياء ، ولكنها كانت مشاهدة لحقائقها ، وقلبه الذى شاهد به هذه الحقائق لم يلقن معارفه ولا تلقاها على يد معلم من البشر ، وانما هو كما قال تعالى فى كتابه العزيز : « **ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين و أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى** » - ( سورة النجم ، آية ٤ - ١١ ) .

**محمد مصطفى حلمى**

* * *